فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

# ١١ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

## فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

— ٢ —

وهنالك علاقته مع المرأة تبدي ناحية من نواحي نفسه ، فقد زعم أناس أن نيتشه كان يذهب مع المرأة مذهب معلمه « شوبنهاور » كاره المرأة ، ويستشهدون على ذلك بقوله : « أيها الذاهب إلى المرأة ! لا تنس عصاك وسوطك » ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المدقق في تعاليم نيتشه ، فالمرأة التي طعنها نيتشه في الصميم هي المرأة المترجلة التي تريد أن تزاحم الرجل في علمه وجهاده واقتصاده ، أما غير هذه المرأة فهو مقدر لها محترم لفضلها ، مقدس لمعنى المرأة فيها ؛ ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات فضليات ، وهو — وإن لم يتذوق من امرأة ذلك الهوى العاصف والحب اللاعج فقد تذوق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة . وقد ذكرت شقيقته في مذكراتها « ان أخاها كان يجهل الحب العادي . . . وإنما كان همه الشاغل له التفتيش عن الحقيقة » . على أن هذا الفيلسوف السئم « المنطوي على نفسه » الذي لم يستسلم للأهواء المصطخبة والميول اللتهبة ، قد تذوق في أيام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل . . . فهو صاحب مثل أعلى في الحب كما كان في الصداقة

وهنالك نشأته المدرسية فقد دلت على طبعه «الارستقراطي» الذي ينفر من كل شيء مبتذل شائع ، ولا يميل إلا إلى كل جميل لامع ، وطبعه هذا هو الذي حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسون معه ، وذوقه هذا الجانح إلى محبة الأشكال الجميلة هفا به إلى عشق الجمال القديم وحب البقرية الفرنسية الغابرة والحاضرة . ونفوره هذا من السوقة والعامة جعله ينفر من المسيحية ، ويصفها ويصف أصحابها ورسلها وصفاً قاسياً ، ويكره كل المبادىء التي تبشر بها الديموقراطية والانسانية الاشتراكية . وكل تعاليمه الأخلاقية إنما تؤول إلى هذه الغاية : « هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة ؟ » ولعل نيتشه كان يمثل نفسه الجبارة في هذه الكلمة التي يرددها « زرادشت » حين يقول : ( تسألونني لماذا ؟ أنا لستُ ممن يُسألون حين يعملون لماذا ؟ ) وهذه صفة نفس لا تعتمد إلا على إرادتها ، تحتمل الألم وتصدمه ثم تهزمه ، وتقابل القدر وتعلن سيادتها عليه

### أطوار حياته

كان هوى نيتشه الراسخ في صدره هو الثور على الحقيقة ، فلننظر أية طريق ركب اليها ، وما هي الدوافع التي هيمنت عليه ؟

كان نيتشه يمت بنسب قوي الى أسرة مفرقة في دينها ، متشددة متعصبة ، مع ميل الى الدراسة العلمية ، قرن والده العلم الى الدين ؛ وما كان لنيتشه أن يبدل هذا السبيل الذي اختاره له والده واختارته طبيعته ، وقد عرفه أصدقاء حداثته مثالياً في دينه وفي تقواه ، ولا عجب إذا أطلقوا عليه — وهو في السادسة من عمره — اسم العابد الصغير ؛ حتى إذا ما أتم دراسته الأولى خرج الى الحياة وهو لا يزال يفكر في ربه ، ولا يكفر بنعمته ، ولا يجحد وجوده . وما هي إلا أعوام كرت حتى أخذ يرتاب في الدين الملاصق للعلم ، لأن ما في الدين من إيمان لا يلائم في رأيه ما في العلم من حرية وانطلاق ! وهو عندما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ متوخياً الحقيقة من وراء دراساته يجد في عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقاً حراً لا يسترقه شيء . ومنذ ذلك الحين بدأ يطمع في الحقيقة العلمية التي يقتفي أثرها فكره الضائع دون أن يفقد الله الساكن في أحناء صدره . ولكن ناشد الحقيقة العلمية لا يتسنى له أن يوفق زمناً طويلاً بين حقيقته المنشودة وبين إيمانه الموروث . فهما حقيقتان متضادتان ، إذا تلاءمتا في أول الطريق فنزاعهما حقيق في وسطه ، وإذا توافقتا في وسطه فالخلاف ناشب في منتهاه . وها هو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ، ويكتب عام ١٨٦٢ تجربة فلسفية على القدر والتاريخ ، يحدثنا أنه قاس بعقله « أوقيانوس الأفكار الواسع ، وهم بأن يجازف بنفسه في بحر الشك ، ولكنه وجد أن مجازفة مثل روحه الضعيفة تجاربها ضرب من الجنون ، وهي لا تملك عدة ، ولا تحمل سلاحاً » ومنذ تلك اللحظة ألفى أن الديانة المسيحية مبنية على افتراضات وهمية . أما وجود الله والخلود والوحي فستبقى جميعها مسائل لا حل لها . ( إنني جربت أن أكفر بكل هذا ، وما أيسر الهدم ! ولكن الهدم يستلزم البناء ... على أن الهدم والتخريب هما أصعب مما تتمثله عقولنا ، فنحن في الحقيقة لا نعيش لأنفسنا ولا تملك أنفسنا وقفاً علينا . فهناك أوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا ، وهناك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا ، وكلها

عوامل مترابطة متلاحمة لا يسهل على العقل أن يخترق سياجها ، ولا يمكن للمنطق أن يقوم اعوجاجها

إن قوة العادة المتوارثة ، وتسامينا الى الكمال ، وانفصالنا عن العالم الحالى ، وحل كل عقد المجتمع ، والشك فى حقائق الوجود ، كلها نوازع تتنازعنا وتملك علينا إرادتنا ، والنكبات المفجعة ، والتجارب المؤلمة ، هى التى تسوق قلوبنا الى الايمان الذى ولد مع طفولتنا ، وصاحب حداثتنا )

وبعد ثلاثة أعوام ألفينا « نيتشه » يخطو خطوته الأخيرة ، ويعلن أن الانسان بين حالين لا ثالث لهما : فهو إما أن ينتخب الايمان وما فى الايمان من هدوء ووقار واستقرار ، وإما أن يمشى على طريق محفوفة بالأخطار : هى طريق الباحثين عن الحقيقة ، الذين لا يتخذون الهدوء والسكينة مأرباً لهم ، وإنما يجدون مأربهم فى نشدان الحقيقة . يمشى الباحث منهم وحده مضطرب النفس قلق الضمير ، ممزق القلب ، نحو ضالته المقصودة ، نحو ما يتجلى له من حق وجمال وخير ، وهو إذا غادر طريق الباحثين ورضى لنفسه ذلك الهدوء فقد قتل البطولة فى نفسه ، وحكم على رجولته بالموت

انفصل « نيتشه » عن المسيحية التى كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشىء رمزى قائم على قواعد رمزية ، شأن الحقائق السامية تكون رموزاً لحقائق أسمى منها وأعلى . وظل يدرك خطر العمل الذى أقدم عليه ، ويتكلم فى كل فصوله « عن موت الإلـه » كأن موته — عنده — حادث عظيم فى تاريخ البشرية أو عمل نفذ اليوم أوله والأجيال الآتيـة ستتممه . ولكن « نيتشه » أعدم هذا الإلـه ليبعث إلـه الحقيقة . « هذا الإلـه ( الأدبى ) ، قد مات ليعيش الإلـه العلمى » وهكذا حمله حنينه الهائج فى أحناء نفسه للدين إلى الايمان بإلـه الحقيقة . وعندما وجد نفسه يتنازعها إلـهان سلطانهما نافذ : الإلـه الذى ورثه ، والإلـه الذى لقيه ، رأى أن يضحى بالأول ويبقى على الثانى . وهذا الإلـه هو الذى يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه ، ولم يمش مع إلـهه هـذا كما يمشى أولئك مع آلهتهم مستسلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين ، فهو يهب عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الايمان بذلك الإلـه الأول ، وهو — الآن — لم يعد يؤمن بنظام الطبيعة ولا بجمالها ولا يميل إلى محاسنها ، ولم يعد يرى فى صفحات التاريخ ذلك القضاء الإلـهى والنظام السماوى اللذين يقودان الانسانية إلى مراميها التى خلقت لها ، ولم يعد يستسلم لذلك القدر الذى يذهب بحياتنا ما يشاء ، ولا لتلك الارادة الإلـهية التى تود أن تهدينا إلى سبيل النجاة والسلام

بحث « نيتشه » جميع الأديان والشرائع منذ العصور الأولى والمذاهب التى نزلت لتخرج النـاس من الظلمات إلى النور . وبعـد أن شكك فى هـذه المذاهب وارتاب فى حقائقها وأغرق فى الانكار عاد إلى هذه الفكرة التى قالها جازماً ، وزعم أنه بهذه الفكرة حل مسألة الوجود : « ألا ان الآلهة جميعهم قد ماتوا ! والآن نريد أن يحيا الانسان الكامل : السوبرمان » ، وهكذا أضاع نيتشه إلـهه ووجد نفسه

بحث الناقدون كثيراً فى فكرة نيتشه التى كانت تتطور وتتبدل تبعاً لما يحيط بحياته . وهو قبل بلوغه هذا المرفأ خاض بحاراً كثيرة وجاز شواطئ كثيرة . وقد أدرك بذاته تطور ذاته فشبه نفسه بالأفعى التى تنسلخ من جلدها أو النسر الذى ينسل ريشه . والحياة — عنده — ليست بواجب يلقى ولا بعمل يفرض ولا بوهم يحسب ، وإنما هى مادة شأنها شأن المواد التى تقع بين يدى الباحث . وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء . همه النضال تهذبه انكساراته كما تهذبه انتصاراته ، أو كالقافز بين الصخور يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة . وهو — بلا كلل ولا فتور — يصعد من عال إلى أعلى ، ومن قمة إلى قمة ، مبدلاً كل لحظة أفقه ، عازماً على ألا يقف أبداً ولا ينثنى أبداً . رداؤه الشجاعة والصرامة ، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية . ولا يجزع من العزلة التى يتنفس فيها ريح الثلج المنهمر . . . هو دائماً فى صعود وارتقاء . وهكذا يعتقد نيتشه الذى فهم الحياة أنها تفوق بعضها على بعض ؛ يعتقد أن التطور لا غنى عنه ، ولا بد منه لأنه مادة ضرورية فى تحول الحياة . يعتقد نيتشه ذلك ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذى اعتقد به ، وقد كان توفيقاً كاملاً وكان تلاؤماً كاملاً ، وصارت مسألته فى الحياة هـذه المسألة : « ما عسى يكون عندى معنى الحياة إذا لم يكن إلـه ؟ » ويجيب على هذه المسألة بهذه الكلمة : « إن اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا فى السماء . إن الحب الأكبر هو جوهر ضرورى وجوده فى كل مسائل الوجود الكبرى . وهـذا الحب وحده جدير بالأرواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ . هنالك فرق كبير بين المفكر الذى يقابل مسائل الوجود بشخصيته ، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته ، وبين المفكر الذى يتوجه إليها مجرداً عن شخصيته ،